موقف مصر من الحكم في سوريا

جاء عندي محمود رياض الى الأركان وقال لي "ما رأيك أن تعقد سوريا اتفاقية مع العراق تقوم بموجبها سوريا بالإلتزام بحماية أنابيب النفط التي تمر في أراضيها وتسجل في المحكمة الدولية؟" قلت له "لماذا تطرح هذا الأمر علي؟ أنا رئيس أركان الجيش أقوم بتنفيذ الأوامر، وهناك رئيس دولة ووزارة خارجية هذا الأمر من اختصاصها. أما اذا أردت رأيي كمواطن سوري فانني أقول لك "هذا تدويل للأنابيب. كيف تطلب هذا والبارحة أممتم أنتم القناة؟ أنابيب ألوف الكيلومترات، أتريد أن أزرع على جانبها الجيش لحمايتها، واذا حدث أن نسفت في مكان ما تكون سوريا مدانة أمام المحكمة الدولية. أهذا رأيك الخاص أم رأي عبد الناصر؟

بدأ كعادته بالمراوغة، وأكد أن هذا الطلب لا علاقة له بعبد الناصر... -ما كنت أعلم حينذاك أن عبد الناصر هو وراء هذا الطلب وأنه لا يتحرك مطلقا دون إرادته. ذهبت إثر هذا الحديث الى وزارة الخارجية وقابلت صلاح البيطار.. حدثته بما كان وبرأيي في هذا الاقتراح. غدا وجهه محتقنا كالشمندر عندما قلت له "هذه خيانة لمصالح سوريا" عرفت أنه وراء إرسال محمود رياض الي حتى يقول "هذا كان بموافقة الجيش".

(جاءت هذه القصة في حديث آخر بتفصيل أكبر).

جاءني محمود رياض وقال لي- ما رأيكم في أن تدولوا أنابيب البترول المارة في سوريا، وتسجلوا العقد بينكم وبين الشركة الانجليزية في المحكمة الدولية؟

قلت له- أنتم في مصر أممتم قناة السويس الدولية، وتريدنا أن ندول شيئا ملكنا، وبعد أن تكون علاقتنا علاقة شركة مع دولة، تصبح علاقة دولة مع دولة؟ هل أكرس جيشي كله لحماية أنابيب البترول؟

قال -سيدي بهذا يضمنون أن لا تقوموا بنسف أنابيب البترول مرة ثانية..

قلت -هل فعلنا ذلك الا من أجلكم عندما اعتدوا عليكم عام 56؟ كيف تستطيع دول مثلنا أن تقاوم دولا معتدية الا بتهديدها بضرب مصالحها؟

قال - ان اطمأنوا تمد العراق خطا ثانيا وتعطيكم ثلاثمائة مليون جنيه استرليني سنويا".

قلت - الله يغنينا عن أموالهم. كرامتنا واستقلالنا أهم عندنا من المال..

ذهب يومها ثم عاد بعد مدة يتحدث في نفس الموضوع فقلت له - لماذا تأتي الي، أنا قائد جيش، لماذا لا تذهب الى وزير الخارجية ووزير الاقتصاد والى رئاسة الوزراء. هنا توجد حكومة"..

قال - سيدي ان لك مركزك ولا يمكن أن ينفذ مثل هذا الأمر دون أن تكون موافقا عليه ".

قلت له أنت عرفت رأيي ولا يمكن أن أبدله، فوالله ان لم تكف عن هذا شكوتك الى عبد الناصر. مثل هذا الأمر لا يمر أبدا!"..

ذهبت الى صلاح البيطار وكان وزير الخارجية وقلت له "محمود رياض يعرض كذا وكذا، هذه خيانة! "

تغير لون وجهه وكان في أشد الانفعال فتأكد لدي أنه كان موافقا على هذا الأمر ولكنه لا يجرؤ أن يتخذ الخطوة بمفرده..

كانت متاعبي كثيرة مع محمود رياض حتى ضقت به ذرعا. استدعيته وقلت له "أريد أن أفهم معنى تصرفاتكم في سوريا، تتدخلون في الصغيرة والكبيرة كأن بلدنا حي في القاهرة؟ تشدون أزر هذا وتفترون على ذاك. تضعون أيديكم بأيدي الأوباش، توزعون الرشاوي. تظنون شيئا يخفى علينا؟ أليس حراما اعطاء الأموال لصعلوك وجماعته الزعران، يكثر تخريبهم في البلد، يركبون السيارات، ويلاحقون البنات، ويروجون الاشاعات يشوهون سمعة أناس معروفين بنظافتهم ويرفعون شعبية أناس لا تستأهل الا الصفع.. ماذا تريدون بهذا البلد؟ ما دخلكم بمشاكلنا وخلافاتنا؟ جايين تمدنونا؟ نحن هل نتدخل بمشاكلكم وخلافاتكم؟ أمورنا أخي نحن نحلها.. هذه الرشوات أصرفوها على شعبكم الجائع، ابنوا بضعة مدارس ينقص من عندكم بضعة أميين.. افتحوا لكم مستشفى هنا ومستشفى هناك يخلص من الوجع بضعة مرضى.. لماذا أنت ساكت؟ الرئيس يرضى عما تفعله؟ سأبعث اليه برسالة أساله..

- والله عم تحرجني سيادة العقيد.. أنا مااعرفش غلطي. مش عارف اللي مزعلك مني.. حقك علي ان كنت غلطان، بس خللي دي بيننا ماينقطعش عيشي، تحرك غضب الريس علي.. أنا مش قصدي الا الخير.. مصر وسوريا دول اخوات.. كلنا في مصر فدا سوريا.. يمكن أنا بخبط.. مااعرفش كويس أتصرف.. عندكم هون مثل ما بتهيأ لي شوية حساسيات.. ناس بتكره ناس، وناس بتغير من ناس، وناس بتفتري على ناس..

- لازم تعرف أنا عمري ماافتريت ولا كرهت أحدا لسبب شخصي.. صحيح هناك تيارات، أناس يريدون بيع أنفسهم، وأناس باعوها، وأناس ينتقلون في سوق النخاسة من سيد لآخر.. هذه الأشكال تجدها في كل مكان من العالم.. أنا كل مايهمني هذا البلد وسيادته وحرمته، وأقف في صف جماهيره أعادي من يعاديها وأصادق من يصادقها.. في جو المؤامرات التي تحاك على سوريا من واجبي انقاذها وفضح الخونة فيها.. والجيش معي في، هم أبناء هذه الأمة الأبية التي ما أحنت عبر التاريخ رأسها..

- أنا بتمنى تفهمني كويس.. ما يحصلش سوء تفاهم بيننا.. دنا بعتز بصداقة انسان زيك.. له مثل وعيك وجدارتك، دنا عندي كسب ثقتك بعمري "..

-كن صريحا معي، هذا هو الطريق لكسب ثقتي.. أنا لا أحب الطرق الملتوية حتى لو كانت عن حسن نية.. مصر محط آمالنا، ولكنك بتصرفاتك تخرب الصورة الرائعة التي نرى بها مصر.. لا تضطرني يوما أن أطلب نقلك من هنا..

-مش انت اللي تعمل كدة سيادة العقيد.. مش تديني فرصة ثانية أبرهن فيها على حسن نيتي؟ ياما نفسي شوف مصر وسوريا يشدوا ايدين بعض، ياما نفسي يتوحدم، ياما نفسي أعرف رجال سوريا الطيبين، مش دول اللي يضللوني ويستغفلوني وهم ياكلم من لحم كتفي..

- أنا أعرف أن ماحصل ليس مقصودا، والا كنتم تلعبون بالنار!

- دي صحيح..

- من الذي يستفيد من محاربة هذا الحكم الا الصهاينة والأميركان؟ ان تفتيت الجيش عملية اجرامية.. يرونه واقفا كالصخر.. لايمكن أن تكون مصر عدوة لنا.. لا أصدق هذا ولا في الحلم." كنت أظنه سفيرا سيئا ولكنني تيقنت فيما بعد أنه مجرد منفذ للأوامر ولا يتصرف من ذاته..

كنا نتحدث بشأن "فيصل العسلي" وهو فاشستي معه حقوق وتحيط به زمرة مرتزقة يجتمعون في مغائر جبل قاسيون.. وكان شكري القوتلي يغض عنه النظر لأنه ابن مناضل أعدمه "جمال باشا".. وفي زمن حسني الزعيم ضاق به ذرعا وسجنه وحلق شعره، ووضعه في برميل قاذورات.. وقد أعطاه محمود رياض 30 ألف جنيه كي يقوم باستقبال "جمال سالم" في المطار مع رجاله ويجعل له بذلك شعبية في دمشق.. وكان عدنان المالكي يلوم محمود رياض ويقول له "هل تتعاملون مع زعران؟" دمشق كان فيها دعاية مضادة للبكايشة الذين قضوا على الاخوان المسلمين.. وكان يشاع بأن عبد الناصر حرض فيصل عسلي على قتل المالكي فرفض..

بهذه المناسبة ان لمحمود رياض مواقف مشبوهة تضع على تصرفاته علامة استفهام كبيرة. وكان وراء قتل "عدنان المالكي" كما عرفت هذا متأخرا.. كان عبد الناصر والسعودية في ذلك الوقت متفقان على ارجاع "شكري القوتلي" الذي كان لاجئا في مصر الى الحكم بعد زوال حكم الشيشكلي.. وكان الجيش والوطنيون يرغبون أن يسلموا الحكم الى خالد العظم.. صحيح أن شكري القوتلي كان رجلا وطنيا، ولكن طريقته المستبدة في الحكم أدت الى انقلاب حسني الزعيم.. ولقد اقترف المالكي غلطة أدت الى اغتياله، اذ أمسك بيد خالد العظم في حفل وقال له "إنا نبايعك"!

دخلت يوم الانتخاب عند شوكت شقير وقلت له "لماذا لا تذهب الى مجلس النواب؟ ان كفة شكري القوتلي تكاد ترجح".. ذهب شقير وبقيت في غرفته حتى عاد. قال "لعن الله النواب.. رجحوا شكري بصوتين".. خرجت من عند شقير فاذا بي ألتقي بـ "أحمد عبد الكريم" نازلا في الأسانسير.. كان يعمل في القوات المشتركة في

مصر.. قلت له "منذ متى أنت هنا؟ قال "منذ أسبوع" قلت له مازحا وليس في ذهني أية فكرة عن دوره في الانتخاب.. رمية رميتها.. "أهكذا أعدتم لنا شكري القوتلي؟ ".. كان قد شاهدني خارجا من غرفة شوكت شقير فظن أنه أخبرني بأشياء.. قال "ان عبد الناصر أرسلني لأقنع نواب العشاير باختيار القوتلي باعتباري كنت ضابطا سابقا في العشاير". مرت أيام والتقيت مرة أخرى بأحمد عبد الكريم فقال لي "أتذكر حديثنا في الأسانسور يوم انتخاب شكري القوتلي؟. جاء عندي فواز الشعلان وقدم لي هدية، خمسين ألف ليرة من ملك السعودية لمسعاي في ترجيح كفة شكري القوتلي ولكنني رفضتها". فواز الشعلان صديقي، تعرفت عليه عن طريق أخي صلاح. أكد لي رواية أحمد عبد الكريم في ترجيح السعودية للقوتلي في عملية الانتخاب وأضاف "لقد قدمت لأحمد عبد الكريم خمسين ألف ليرة وأخذها مقابل شراء أصوات نواب العشاير".

-كيف اتفق عبد الناصر والقوميون السوريون على قتل المالكي؟

- اتفق عبد الناصر مع جناح من القوميين السوريين يمثله جورج عبد المسيح. أما المنفذون فكانوا بقيادة غسان جديد الذي كان على خلاف مع المالكي. أثناء المحاكمة كان غسان جديد كثيرا مايهدد بكشف أمور تجلو ملابسات القضية وتكشف المحرضين عليها، فقتلته المخابرات المصرية في لبنان وكان رئيسها عبد الحميد غالب عن طريق شاب فلسطيني من عائلة شعث..

- أليس السراج هو الذي قتله؟

- لا السراج كان يسره أن يتمنفخ. وطبعا المخطط الأول في هذه الأحداث كانت أميركا. فهي ضربت عصفورين بحجر.

- كيف كان ذلك؟

- عندما كنت أذهب الى لبنان تعرفت الى مطران صيدا، ونمت بيننا صداقة، فكنت أزوره ويزورني، وكان أحيانا يستجم في بيروت، وينزل في فندق ويدعوني.. قابلت عنده "عبدالله القبرصي" رئيس الحزب القومي ومقره في لبنان، وهو يمت اليه بصلة قرابة. أظن أنه ابن أخته، ودار بيننا الحديث عن محاكمة القوميين. قال لي "جئت الى مكتبي فوجدت ورقة تقول لي "لاتذهب الى دمشق فالقوميون يلاحقون بسبب قتل المالكي". استغربت الأمر، فأنا رئيس الحزب لاأعرف عن الأمر شيئا. كان المسؤول السياسي عن تنفيذ هذه الجريمة هو عصام المحايري والمسؤولان العسكريان هما جورج عبد المسيح وغسان جديد، وهذا الجناح الذي كان يحبذ الارتباط بأميركا هو الذي قام بالعملية ونفذ الإغتيال. وفي الحزب شكلت لجنة لمحاكمة هذا الجناح، وطردناهم من الحزب. قلت لعبد الله "ان الرصاصة التي قتلت المالكي هي التي قتلت الحزب". قال "صدقت. يسلم فمك!"

وفي بيروت قابلت أيضا "جبران جريج" وأهداني مجلداته الثلاثة عن الحزب القومي السوري. قال لي "كان جورج عبد المسيح رئيس مجلس العمد، فجمعنا يوم

مقتل المالكي، وجئنا من لبنان الى دمشق، وأثناء الاجتماع دخل علينا "فؤاد جديد" أخو غسان، وضرب سلاما عسكريا وقال "نفذت المهمة واغتيل عدنان المالكي!" وساد الاضطراب المجلس، وسألنا جورج عبد المسيح كيف تم هذا الأمر دون علمنا؟ وقمنا عليه. قال ليس هناك وقت للتفسير، انهم سيلاحقون القوميين، فليتدبر كل واحد أمره حتى لا تعتقلوا. وقال غسان جديد "انهم سيقبضون علي أول الجميع باعتباري كنت على خصام مع المالكي. ولم يلبث أن انفرط المجلس، وذهب كل واحد من جهة. واعتقل البعض وهرب الباقون".

أنا في المحاكمة أنقذت عنق فؤاد جديد، لأنني استبعدت أن يكون غسان قد ورط أخاه الأصغر في الجريمة؛ فعادة من وجهة نظر انسانية يتحاشى الأخ أن يشرك أخاه في مثل هذا ويعرضه للخطر، وخصوصا اذا كان صغير السن. ولم تكن تلك الواقعة قد ذكرت من قبل أحد من المتهمين، ولم تكن الأدلة كافية ضده، ولم يكن موجودا في مسرح الجريمة فبرأته..

ذهبت في وقت لاحق الى مصر للاضطلاع على وضع القوات المشتركة هناك. كان ذلك قبل الوحدة، فاستدعاني عبد الناصر وقال: أنا من زمان كنت عايز شوفك، دنت راجل سياسي عارف الحقيقة زي ما بسمع عنك. ممكن الواحد يتفاهم معاك. عشمان فيك قوي. ليه الناس دول في الشام عاملين حرب علينا، بيقولوا دولة بكباشية؟ دا نحن حلم أحلامنا سورية تبقى معانا.

قلت له - القصة ومافيها أن الناس عندنا لازالوا متأثرين بما حصل للاخوان المسلمين!..

-أمال ايه! دول عاوزين الكون يتمسمر عشان شوية مجانين؟ نحن عاوزين نشجع المتعلمين زيكم. انتم بتخلقوا الأوضاع مش الأوضاع بتأثر فيكم. انتم كادر ثوري مش ممكن تخلوا موجة التيار الشعبي تغرقكم. وانت ابن عائلة كبيرة، ايه اللي يمنع تكون طموح وتروح مصر. مصر دي تبقى أم الدنيا، واللي يربط مصيره فيها ما يخسرش أبدا. نحن مستعدين نسلمك قيادة الجيش هنا وهناك..

-أنا أحب مصر طول عمري، ولكنني أفضل البقاء في سوريا.

-ان كان لك شكوى بخصوص القوات المشتركة ابحثها معاي مش مع أي حد تاني".

وما أريد أن أقوله أننا تطرقنا لذكر المالكي. حاول أن يبخسه قدره وأنه ليس الرجل الذي يستحق كل هذا التكريم فقلت له:

- هناك انسان قتل في سبيل موقف تجاه الحياة يؤمن به.. كم عدد أولئك الذين يرضون لأنفسهم ذلك المصير في سبيل مثل هذا الموقف في هذا البلد؟ أما كان بوسعه أن يقبض المساعدات من الأميركان ويبني القصور ويجعل البلد في قبضته ويعيش حتى الشيخوخة.. هذه هي العظمة الانسانية التي تخلد ذكر الإنسان. ليس العظيم انسانا خارقا، بل هو ذلك الانسان البسيط الذي تكون له عيوبه الصغيرة كما

تقول، ولكنها تمحى وتتلاشى جميعها أمام روعة ذلك الموقف. انه حصيلة الحياة الكاملة التي عاشها، واستحق بذلك أن ينحت له تمثال ويكون قدوة للأجيال.

* * *